الاستقامة على الدين
منهج الصالحين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه اللّه-:

أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

الشيخ/ندا أبو أحمد

الاستقامة على الدين... منهج الصالحين

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

الاستقامة على الدين... منهج الصالحين

أولًا: تعريف الاستقامة:

ثانيا: وصية رب العالمين للأنبياء والمرسلين بالاستقامة على الدين.

ثالثا: وصية النبي ﷺ لأمته بالاستقامة على الدين

رابعاً: وصية السلف بالاستقامة:

خامسا: نماذج وأمثله للذين استقاموا على دين الله تعالى

سادسا: أسباب الاستقامة:

١- الاعتصام بالله تعالى:

٢- التوسط بين الإفراط والتفريط:

٣- مجاهدة النفس في فعل الطاعات والمواظبة عليها:

٤- تعهد اللسان فلا ينطق إلا بما يرضي الرحمن:

٥- مصاحبه الأخيار:

٦- طلب العلم الشرعي:

٧- قراءة سير الأنبياء وقصصهم وتدبرها:

٨- محاسبه النفس:

٩- الدعاء:

سابعاً: ثمرات الاستقامة:

١- الحياة الطيبة:

٢- حفظ الله للعبد في أهله وماله ودينه:

٣- سعة الرزق:

٤- حسن الخاتمة:

٥- البشري الطيبة على فراش الموت:

٦- الثبات على الصراط وسرعة المرور عليه:

٧- النجاة من النار:

٨- وأخيرًا من ثمرات الاستقامة: الفوز بالجنة:

سؤال مهم: اذا وقع الإنسان منا في خطأ أو ارتكب ذنبًا، فهل بذلك خرج عن حد الاستقامة؟

الاستقامة على الدين... منهج الصالحين

أحبتي في الله... غاية كل إنسان منا هي الفوز بالجنة والنجاة من النار، فكل نعيم دون الجنة هو سراب، وكل عذاب دون النار هو عافية، والفوز بالجنة والنجاة من النار لا يكون إلا بفعل المأمور واجتناب المحظور، ولا يُكتفى بذلك بل يستمر الإنسان على هذا إلى أن يلقى الله تعالى، وهذا ما يعرف بالاستقامة، فلا نجاة إلا لمن استقام على طاعة الله واجتنب ما نهى عنه، **وهذا معنى قوله تعالى:** ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: " أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك ". اهـ

فعلى الإنسان أن يفعل الصالحات ويبتعد عن المنهيات ويقيم على هذه حتى الممات ويحذر الانتكاس.
لأننا رأينا في هذا الزمان ومن قبله بزمان من تنكب الطريق بعد أن مشي فيه، ومن آثر الغي بعد الرشاد، والضلالة بعد الهدى، والفجور بعد التقى.

- **كحال إبليس** الذي كان في ابتدائه ما كان، ثم عصى ربه، فطرده الله من جنته ومن رحمته.
- **وكبلعام بن باعوراء** الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتبع هواه وكان من الغاوين.
- **وكحال برصيصا الراهب** وقد ذكر قصته أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦)
- **وهذا رجل يدعى الرَّجال بن عنفوة** وقد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ البقرة فارتد في زمن أبي بكر وشهد لمسيلمة بالنبوة، وقد قتل هذه الكذاب الأشر في يوم اليمامة.
- وكذلك خرج في زمن أبي بكر ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ خلق كثير فقاتلهم أبو بكر ﷺ.
- وارتد كذلك خلقٌ في عهد وخلافه عمر ﷺ ومنهم **ربيعة بن أمية بن خلف** وكان في عداد الصحابة حيث كان رجلًا شرّابًا للخمر، فحده عمر ﷺ ثم نفاه إلى خيبر، ففر هاربًا إلى هرقل، فارتد عن دينه ودخل في النصرانية من أجل الخمر.
- وحدث هذا أيضًا مع **عبيد الله بن جحش** الذي هاجر إلى الحبشة فارتد ودخل في النصرانية فخرج من النور إلى الظلمات نعوذ بالله من الخذلان.

وهنا أتذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤)

فجاء قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أولا، ثم جاء قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فهذا يدل على أن من استجاب لله ورسوله فقد نجا، ومن يرفض الإذعان ولم يستجب أو استجاب ثم انتكس؛ يعاقب بتقلب القلب، **وصدق فيهم قول رب العالمين:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة الصف: ٥)

فهذه سنة ربانية مع أهل الأهواء الذين تتقاذفهم أمواج الفتنة والشهوات وحب الدنيا. ***وقد جاء في السنن الكبرى للنسائي بسند فيه مقال من حديث أنس*** ﷺ **أن رسول الله** ﷺ **قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** (فصلت:٣٠) **فقال:" قد قالها الناس ثم كفروا، فمن مات عليها فهو من أهل الاستقامة".**

– ***وعند الترمذي بلفظ:*** **" قد قالها الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام ".**

فاحذر أخي الحبيب أن تكون ممن استقام ثم انتكس، أو ممن عرف الطريق ثم انحرف، أو تكون ممن ذاق طعم الإيمان، ولذة القيام، وحلاوة القرآن، ثم بعد ذلك سلك طريق الشيطان وابتعد عن الرحمن فما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة.

ورب العالمين حذرنا في كتابه الكريم أن نكون كحال هذه المرأة التي جاء ذكرها في سورة النحل؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل:٩٢)

قال ابن كثير–رحمه الله– في تفسير هذه الآية: " هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه ". اهـ

وهذا حال البعض منا تراه مقيمًا على الطاعات بعيدًا عن المنهيات، ولكن بعد فترة من الزمان تتبدل الأحوال ويترك الطاعات ويقع في المنهيات التي كان ينهي عنها في يوم من الأيام، وهذا ما نشاهده رأي العين بعد رمضان فمع قدوم هذا الشهر المبارك يقبل الناس على الطاعة ويبتعدون عن المعصية وما أن ينتهي الشهر إلا وتخلو المساجد من المصلين، ويهجر كتاب رب العالمين، بعد أن كان يُقرأ ليل نهار، وتتيبس الشفتان عن ذكر الرحمن بعد أن كانت رطبة بذكره تعالى، وقطعت الأرحام، وشُرب الدخان، ورجع الإنسانُ كما كان قبل شهر رمضان، وهذا كله يتنافى مع الاستقامة التي أُمرنا بها.

وبعد هذه المقدمة وبيان خطورة الأمر آن لنا الشروع للدخول في الموضوع ونبدؤه بتعريف الاستقامة.

أولًا: تعريف الاستقامة:

قال ابن رجب الحنبلي-رحمه الله- كما في" كتابه جامع العلوم والحكم ص:٣٦٤": " الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم؛ وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك ".

- **وقد عرف البعض الاستقامة: بالتوحيد:**

وقد سئل صديق الأمة أبو بكر الصديق ﷺ عن الاستقامة فقال: **" أن لا تشرك بالله شيئًا ".**

(أخرجه ابن جرير: ٢٤/١١٤ بسند صحيح)

وقال مجاهد -رحمه الله-: " استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله، حتى لحقوا بالله ".

(مدارج السالكين:٢/١٠٥)

- **وعرفها البعض بالإخلاص:**

قال عثمان بن عفان ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ **يعني أخلصوا العمل لله".**

(المصدر السابق)

وقال أبو العالية -رحمه الله-: " ثم استقاموا" أي أخلصوا لله الدين والعمل ".

- **وعرفها البعض: بالاستقامة على الأمر والنهي والمداومة على ذلك:**

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: **" الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تزوغ روغان الثعالب ".**

(المصدر السابق)

وقال الحسن -رحمه الله-: " استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته ". **(المصدر السابق)**

وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله- في" الفتح: ١٣/٢٥٧": " الاستقامة كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلًا وتركًا ".

- **وعرفها البعض بلزوم محبة الله تعالى:**

يقول ابن القيم -رحمه الله- في" مدارج السالكين:٢/١٠٩": " سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الاستقامة على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة ".

- **وعرف البعض الاستقامة بأنها التوسط بين الإفراط والتفريط:**

يقول الشيخ صالح الفوزان-رحمه الله- كما في كتابه الاستقامة ص:٨": " فالاستقامة تعني التوسط بين الإفراط والتفريط، بين التساهل وعدم المبالاة، وبين الغلو والتشديد، هذا هو طريق الاستقامة لأن دين الله بين الغالي والجافي. الغالي وهو الذي يزيد ويتشدد، والجافي هو المتساهل الذي لا يهتم بدينه بل هو مفرط وكل من خرج عن الجادة ومال عنها، سواء بتساهل أو بتشدد خرج عن شرع الله سبحانه وتعالى". اهـ

ويقول صاحب كتاب التحرير والتنوير:٢٤/٢٨٢":"وقوله:"استقاموا": يشير إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي أن يكون وسطًا غير مائل إلى طرف الإفراط أو التفريط...، فكمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة. فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل، بل يمشي على الخط الفاصل بين التشبيه والتعطيل، ويستمر كذلك فاصلًا بين الجبري والقدري، وبين الرجاء والقنوط، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط ". اهـ

فالاستقامة: هي الاعتدال والوسط بين الطرفين، والحسنة بين السيئتين.

فالناظر إلى تعريفات الاستقامة السابقة يتبين له أن الاستقامة كلمة جامعة لخصال الدين من حيث العقيدة، والعمل، والتشريع، والسلوك، والأخلاق.

يقول صاحب كتاب "بصائر ذوي التمييز:٤/٣١٢": والاستقامة كلمة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، وهي تتعلق بالأحوال، والأفعال، والنيات، والاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله تبارك وتعالى". اهـ

ويقول الشيخ صالح الفوزان-رحمه الله- تعالى كما في" كتابه الاستقامة ص:٩": الاستقامة تعني لزوم شريعة الله تعالى في التوحيد وإخلاص العبادة لله، وفي الآداب والأخلاق والتعامل مع الناس، وفي كل ما يفعله الإنسان في هذه الحياة يكون مستقيمًا على المنهج الصحيح الذي رسمه الله تعالى وبينه رسوله ﷺ، لأن هذا المنهج هو منهج الذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة:٦،٧) فالذين أنعم الله عليهم: هم أهل الاستقامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ". اهـ

تنبيه: في هذا الزمان يرادف مصطلح الاستقامة مصطلح الالتزام: وهو في اللغة افتعال من اللزام يقول ابن الأثير في النهاية:" اللزام في اللغة الملازمة للشيء والمداومة عليه ".

(انظر لسان العرب: ١٢/٥٤٤) (النهاية في غريب الحديث:٤/٢٤٨)

ثانيا: وصية رب العالمين للأنبياء والمرسلين بالاستقامة على الدين:

لأهمية الاستقامة تجد أن الله تعالى كان يوصي بها أنبياءه صلوات الله عليهم وتسليمه، **فعندما قال موسى -عليه السلام- لرب العالمين:** ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨)

فقال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٨٩)

- وقال رب العالمين للنبي الأمين ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود:١١٢)

يقول ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ". اهـ

ويقول ابن عباس-رضي الله عنهما- عن هذه الآية: **" ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشد ولا أشق من هذه الآية ".** اهـ

وهذه الآية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هي التي شيبت رسول الله ﷺ.

- فقد أخرج الترمذي من حديث أبي جحيفة ﷺ قال: **قالوا: يا رسول الله! نراك قد شبت، قال قد شيبتني هود وأخواتها ".**

- وفي رواية الترمذي من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: **قال أبو بَكْرٍ ﷺ: يا رسولَ اللَّهِ! قد شِبتَ، قالَ:" شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتَساءَلُونَ، وإذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ".**

وصية رب العالمين لأمة الحبيب الأمين ﷺ:

فكما أمر ربُّ العالمين النبي الأمين ﷺ بالاستقامة على الدين؛ فكذلك أمر أمته بهذا.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

وقد جاء في مسند الإمام أحمد والنسائي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: **" أن النبيَّ ﷺ خطَّ خطًّا مستقيمًا، فقال: هذا سبيلُ اللهِ، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينِه وشمالِه، وقال: هذه السبُلُ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم تلا هذه الآيةَ: ﴿وأنَّ هذا صِراطِي مُستَقيمًا فاتَّبِعوهُ ولَا تتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بِكم عَنْ سَبيلِهِ﴾.**

ثالثا: وصية النبي ﷺ لأمته بالاستقامة على الدين:

فكما وصى رب العالمين الأنبياء والمرسلين وأمة النبي الأمين ﷺ بالاستقامة كذا فعل النبي ﷺ حيث وصى أمته وأصحابه بالاستقامة.

١- ***فقد أخرج الإمام مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال:*** **قلتُ: يا رَسولَ اللهِ! قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأَلُ عنْه أحَدًا بَعْدَكَ، وفي حَديثِ: غَيْرَكَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ، ثم اسْتَقِمْ ".**

قال القاضي عياض-رحمه الله-: " وقول النبي ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ: **" قل آمنت بالله ثم استقم"** هذه من جوامع كلامه ﷺ وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي وحدوا الله وآمنوا به ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن تُوفُوا على ذلك ". اهـ

وقال ابن رجب-رحمه الله- معلقًا على هذا الحديث فقال: " والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة منها والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها ". اهـ

وفي الحديث السابق تجد أن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ طلب من النبي ﷺ أن يعلمه شيئًا جامعًا لأمر الإسلام فقال النبي ﷺ: **" قل آمنت بالله..."** والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجود الله وبربوبيته وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وبأخباره وكل ما جاء من عنده سبحانه.

والإيمان لا كما يزعم البعض هو قول اللسان فقط بل هو اعتقاد بالجنان (القلب)، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، **ولذلك قال النبي ﷺ لسفيان بن عبد الله ﷺ:** **" ثم استقم"** أي استقم على دين الله واستقم على الصلاة، والزكاة، والصيام والحج، وقراءة القرآن، وصلة الأرحام، وغيرها من الأعمال، ولا تَحِد عنها يمنة أو يسرة، فهذا يزيد الإيمان. لأن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ودعوى الإيمان لا تكفي ما لم يدل على الإيمان العمل الصالح فإنه ترجمة له وثمرة من ثمراته، وهذا الإيمان يجب أن يكون راسخًا في قلب المؤمن لا تعصف به الأعاصير، ولا تزعزعه الشبهات، ولا تؤثر عليه الشهوات، فهو الأصل في هذا الدين، وهو المنطلق لكل عمل، لا يصح عمل بدونه، ولذلك بدأ النبي ﷺ به وهذا يحتم على المسلم أن يحققه في قلبه ويظهر عليه في واقع حياته.

٢- وصيه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ بلزوم الاستقامة:

ففي مستدرك الحاكم وعند الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ أرادَ سَفرًا فقالَ يا رسولَ اللَّهِ! أوصِني، قالَ:" اعبُدِ اللَّهَ ولا تشرِكْ بِهِ شيئًا، قالَ: زدني يا رسولَ اللَّهِ، قالَ:" إذا أسأتَ فأحسن"، قالَ: زدني، قالَ:" استقم ولتحسِّن خلقَكَ ". (الصحيحة: ١٢٢٨)

٣- وأخرج الترمذي والإمام أحمد عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل-رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: " اتَّقِ اللَّهَ حيثُ ما كنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ النَّاسَ بخلقٍ حسنٍ ". (صحيح الترمذي: ١٩٨٧)

أي استقم على شرع الله في السر والعلانية، وفي أي مكان وفي أي زمان. والتقوى هي فعل المأمور واجتناب المحظور، فإذا واظب الإنسان على ذلك فهي الاستقامة.

وقد مر بنا تعريف الحافظ ابن حجر للاستقامة فقال-رحمه الله-: " هي كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلا وتركا ". (فتح الباري: ١٣/٢٥٧)

٤- وهناك من الأحاديث الكثيرة والتي حث فيها النبي ﷺ على الاستقامة؛ ومنها:

ما رواه الإمام مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يُصْبِحُ علَى كُلِّ سُلَامَى[١] مِن أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِن ذلكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُما مِنَ الضُّحَى ".

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

" في الإنسانِ ثلاثمائة وستون مِفْصَلًا[٢] فعليه أن يَتَصَدَّقَ عن كلِّ مِفْصَلٍ منه بصدقةٍ. قالوا: ومَن يُطِيق ذلك يا نبيَّ اللهِ؟! قال: النُّخاعةَ[٣] في المسجدِ تَدْفِنُها، والشيءَ تُنَحِّيه عن الطريقِ، فإن لم تَجِدْ فركعتا الضحى تُجْزِئُك ". (صحيح أبي داود: ٥٢٤٢)

- وفي رواية: " في الإنسانِ ثلاثمائةِ وستونَ مِفْصَلٍ، على كلِّ مِفْصَلٍ منها صدقَةٌ. قالوا: يا رسولَ اللهِ! وأيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قال: أَلَيْسَ يُنَحِّي أحدُكم الأذى عن الطريقِ؟ ويُبْزَقُ في المسجدِ فَيَدْفِنُهَا؟ فَإِنْ لم يفعلْ فإنَّ رَكْعَتَيِ الضُّحَى تُجْزِيهِ ".

وهذه دعوة للمواظبة على الاستقامة، فكل يوم يصبح فيه الإنسان عليه صدقة على كل مفصل في جسده، فان لم يقدر فعليه أن يصلي ركعتي الضحى.

١- وأصْلُ السُّلامَى -بضَمِّ السِّينِ- عِظامُ الأصابِعِ والأكُفِّ والأرجُلِ، ثُمَّ استُعمِلَ في سائِرِ الأعْضاءِ.
٢- المَفْصِلُ: هو مُلتقى كلِّ عَظمَينِ في جِسمِ الإنسانِ، وهو مِن عَجيبِ خَلقِ اللهِ سبحانَه الذي يُيسِّر حَركةَ الإنسانِ.
٣- النُّخاعةُ: هيَ ما يبصُقه الإنسانُ مِن لُعابٍ أو مُخاطٍ.

يقول الشوكاني-رحمه الله- في" نيل الأوطار٣:/٧٨": والحديثان يدلان على عظم فضل صلاة الضحى وكبر موقعهما، وتأكد مشروعيتها وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة ".

ومما يدل أيضًا على حث النبي ﷺ على الاستقامة أيضًا قوله ﷺ: " الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ ما بيْنَهُنَّ إذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ ".

(أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ)

وصيه النبي ﷺ لأمته بالاستقامة:

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه واللفظ له والطبراني من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " استقيموا[1]، ونِعِمَّا إنِ استقمتُمْ، وخيرُ أعمالِكم الصلاةُ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلَّا مؤمنٌ ".

(صحيح ابن ماجه: ٢٢٦) (صحيح الجامع: ٩٥٣)

وأيضًا من وصايا النبي ﷺ لأمته بالاستقامة:

ما ذكره رب العالمين على لسان النبي الأمين ﷺ حيث قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت:٦)

وضرب النبي ﷺ مثالًا رائعًا للاستقامة على شرع الله تعالى:

ففي سنن الترمذي ومسند الإمام أحمد عن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ، فيهما أبوابٌ مُفتَّحَةٌ، وعلَى الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ! ادخلوا الصراطَ جميعًا ولَا تتَعَوَّجوا، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفتَّحَةُ محارِمُ اللهِ تعالى، وذلِكَ الدَّاعِي على رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ ".

(صحيح الجامع: ٣٨٨٧) (صحيح الترغيب: ٢٣٤٨)

وهذا الحديث يحثنا على الاستقامة وأن لا نحيد يمينة أو يسرة حتى لا نقع في محارم الله.

---

١ ـ وهذا أمرٌ بالاستِقامةِ على الطَّريقِ المستقيمِ طريقِ الهُدى، والاستِقامَةَ هي الإقامةُ عَلى قَولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، بإيفاءِ حَقِّه، وأداءِ أوامِرِه، والانتِهاءِ عمَّا نَهى عنْه، والرِّضا بما يَكونُ مِنه، ويَحتمِلُ أن يَكونَ مَعنَى قَوْلِه: "اسْتَقيموا"، عَلى ما أقرَرْتُم في الذَّرِّ الأوَّلِ حينَ أجَبتُم رَبَّكم عزَّ وجلَّ بقَولِكم حين قال لَكم: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}، أي: اسْتَقيموا عَلى قَولِكم: "بَلى".

رابعاً: وصية السلف بالاستقامة:

وكما وصى رب العالمين الأنبياء والمرسلين بالاستقامة، ووصى بها كذلك النبي ﷺ أمته، فكذلك كان الصحابة والسلف الصالح يوصي بعضهم بعضًا بها.

ففي صحيح ابن خزيمة وسنن أبي داود عن عائشة-رضي الله عنها- أن عبد الله بن قيس دخل عليها فقالت له: **" لاَ تدع قيامَ اللَّيلِ فإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ لاَ يدعُهُ، وَكانَ إذا مرضَ أو كسلَ صلَّى قاعدًا".**

أي لا تنحرف عما اعتدت عليه من الأعمال الصالحة والمواظبة عليها؛ وهذه هي الاستقامة.

وجاء في صحيح البخاري عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قالَ: **" يا مَعْشَرَ القُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فإنْ أخَذْتُمْ يَمِينًا وشِمالًا، لقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلالًا بَعِيدًا ".**

وفي هذا الحديثِ يُوَجِّه حُذَيفَةُ بنُ اليَمَانِ ﷺ نصيحةً إلى القُرَّاءِ – وهمُ العُلماءُ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ- يَقولُ فيها: "استقِيموا"، أي: اسلُكوا طَريقَ الاستِقامة، وهي كِنايةٌ عن التَّمسُّكِ بأمرِ اللهِ تَعالَى والاقتِداءِ بسُنَنِ رَسولِ اللهِ ﷺ فِعلًا وتَركًا، فإنِ استَقَمتُم سَبقتُم غيرَكم سَبقًا ظاهرًا إلى كلِّ خيرٍ، ورُوي "سُبِقْتُم" بضَمِّ السِّين، أي: سَبَقكمُ السَّلفُ سَبقًا مُتمكِّنًا، فلعلَّكم تَلحَقونَ بهم بعضَ اللَّحاقِ بالسَّيرِ على مِنهاجِهم، ولكن "إنْ أخَذتُم يَمينًا وشِمالًا"، يعني: خالَفتُم الأمرَ وأخَذتُم غيرَ طَريقِ الاستِقامة؛ "فقد ضَلَلتُم ضَلالًا بَعيدًا" عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ، وكَلامُ حُذيفةَ ﷺ مُنتزَعٌ من قولِه تَعالَى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ (الأنعام: ١٥٣). (الدرر السنية)

وجاء في سنن الدارمي أن رجلًا قال لكل من ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم-: أوصني، **فكان كل واحد منهما يقول:" عليك بتقوى الله، والاستقامة، اتبع ولا تبتدع".**

وكان أبو علي الجوزجاني يقول: " كن صاحب استقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة ".

ويذكر العلماء في ترجمة عبد القادر الجيلاني-رحمه الله- أن أهل بغداد طلبوا منه كرامة تدل على صلاحه وعلو منزلته فقام فيهم خطيبًا وقال: أيها الناس! أنا فيكم منذ كم سنة؟ قالوا: منذ كذا وكذا، فقال: هل رأيتم عليّ معصية قط أو خالفت شريعة الله تعالى؟ قالوا: لا. قال: فهذه أعظم كرامة يكرم الله بها عباده ".

وصدق شيخ الإسلام-رحمه الله- حيث قال: " أعظم الكرامة لزوم الاستقامة ".

(مدارج السالكين لابن القيم:٢/١١٠)

خامسا: نماذج وأمثله للذين استقاموا على دين الله تعالى [1]

١- ***ها هو أبو سفيان ﷺ لما حضرته الوفاة قال:*** "**لا تبكوا عليّ فإني لم أتنطف [2] بخطيئة منذ أسلمت**". (السير:١/٢٠٤)

٢- ***وهذا سعيد بن المسيب-رحمه الله-*** لما حضرته الوفاة وبكت عليه ابنته فقال لها: لا تبكي عليّ فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام في الصف الأول منذ أربعين سنة ".

٣- ***وهذا وهب بن منبه-رحمه الله- يقول عنه المثنى بن الصباح:*** لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئًا فيه الروح، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا- أي كان مواظبًا على قيام الليل-". (نزهة الفضلاء:١/٤٤٠)

٤- ***وها هو عبد الله بن عون-رحمه الله- عالم البصرة يقول عنه خارجة بن مصعب:*** " صحبت ابن عوف أربعًا وعشرين سنة فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة ".

٥- ***والأعمش -رحمه الله-*** ما ترك الصف الأول منذ أربعين سنة.

٦- ***أما يحيي بن سعيد القطان-رحمه الله- يقول عنه بندار:*** اختلفت إلى يحيي بن سعيد أكثر من عشرين سنة ما اظنه عصى الله قط ". (السير:٩/١٧٨)

٧- ***أما ابن عساكر-رحمه الله- فيقول عنه ابن القاسم:*** " كان يحاسب نفسه على كل لحظة تذهب في غير طاعة ". **وقال عنه أبو المواهب:** لم أر مثله، ولا من اجتمع فيه ما اجتمع من لزوم طريقة واحدة مدَّة أربعين سنة ". (السير:٢٠/٥٦٢)

٨- ***وها هو الإمام الحافظ ابن أبي حاتم -رحمه الله- يقول عنه علي بن محمد البصري:*** منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة لم ينحرف عن الطريق ". (طبقات السبكي:٣/٣٢٥)

٩- ***وها هو الإمام الجليل أبو الطيب الطبري طاهر بن عبد الله بن طاهر ما عصي الله بجارحة قط.***

يقول القاضي أبو بكر الشامي: قلت للقاضي أبي الطيب- وقد عُمِّر-: شيخنا لقد مُتعتَ بجوارحك. فقال: لم لا؟ والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط ". (طبقات السبكي:٥/١٥)

١٠- ***ويقول ابن دقيق العيد محمد بن علي بن وهب -رحمه الله- عن نفسه:*** ما تكلمت كلمة ولا فعلتُ فعلًا إلا وأعددت له جوابًا من الله عز وجل ".

فالاستقامة درجة عالية تدل على كمال الإيمان، وعلو الهمة، وتحقيقها يحتاج إلى جهد ومصابرة، ودعاء وتضرع، وتوفيق، واحتراز.

لله درَّهم استقاموا على دين الله فوجدوا حلاوة الإيمان، وطعم العبادة، **وقد قيل لوهيب بن الورد:** أيجد طعم العبادة من يعصي الله؟ قال: لا، ولا من همَّ بمعصية ".

١- صلاح الأمة في علو الهمة ص: ٨٦-٩٣ بتصرف واختصار.
٢- لم أتنطف: يعني لم أتلطخ بها.

سادسا: أسباب الاستقامة:

١ - الاعتصام بالله تعالى:

فالاعتصام بالله من أعظم أسباب الاستقامة، **قال تعالى:** ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١)

والاعتصام بالله أن تلجأ إليه وتتوكل عليه وتحتمي به أن يدفع عنك الشهوات والشبهات وأن يثبتك على الصراط المستقيم.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: " كانَ النبي ﷺ إذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ:" اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ [١]؛ إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢]".

وقول النبي ﷺ:" إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ": إخبارًا بأن الأمر كله بيده سبحانه، وهذا يجعلنا نتوجه بقلوبنا إليه ندعوه أن يثبتنا على الإيمان كما كان يفعل الحبيب العدنان ﷺ ، فقد كان من دعائه ﷺ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَأَسْأَلُكَ الْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ".

(رواه الترمذي والنسائي من حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ)

وفي قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٧)

يقول ابن القيم-رحمه الله- في تفسير الآية كما في" كتابه إعلام الموقعين:١/٢١١": تحت هذه الآية كنز عظيم من وفق لمعرفته وحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمه فقد حُرِم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين **وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه:** ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٤) **وخاطبه أيضًا بقوله:** ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠) والخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت اللهُ عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتا. **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (سورة النساء: ٦٦) ". اهـ بتصرف واختصار

١- اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحقِّ بإذْنِكَ: أي: ثَبِّتْنِي وزِدْنِي الهدايةَ إلى الطَّريقِ المُسْتَقِيمِ الَّذي دَعَا إليه الأنبياءُ والمرسَلون، بتَوفيقِكَ وتَيْسِيرِكَ.

٢- إنَّكَ تَهدِي مَن تشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ: وهو طَريقُ الحقِّ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، وهو دِينُ الإسلامِ، الَّذي أرسَلَ اللهُ به محمَّدًا ﷺ، وسُمِّيَ صِراطًا؛ لأنَّه مُوصِلٌ للمقصودِ كما أنَّ الطَّريقَ الحِسِّيَّ كذلك.

٢- التوسط بين الإفراط والتفريط:

قال تعالى لنبيه وصفيه وحبيبه ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود:١١٢) فعلم من هذه الآية أن الزيادة والطغيان مما ينافي الاستقامة، فالغلو والتشديد على النفس سبب في انحراف العبد عن الطريق المستقيم، **وقد قال النبي ﷺ في الحديث:** " إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ فأوغِلْ فيه برِفْق".

(رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني وضعفه أهل العلم والراجح ضعفه)

وروي عنه أيضًا ﷺ أنه قال: " فإنَّ الْمُنبتَّ لا أرضًا قطعَ، ولَا ظهْرًا أبْقَى [١] ".

(رواه البزار والحاكم والبيهقي من حديث جابر رضي الله عنه بسند ضعيف) (ضعيف الجامع: ٢٠٢٢)

وحذر النبي ﷺ من الغلو في الدين فقال ﷺ: " إياكم والغُلُوَّ في الدينِ، فإنَّما هلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بالغُلُوِّ في الدينِ ". **(رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- وهو في صحيح الجامع: ٢٦٨٠)**

وعلى النقيض فإن التفريط والتساهل سبب أيضًا في انحراف العبد عن الطريق المستقيم.

وتحصيل الاستقامة لا يكون إلا بالاعتدال والتوسط وعدم الميل إلى أحد الطرفين؛ طرف التفريط والتقصير والتساهل، أو طرف الغلو والإفراط والتشدد، وهذا هو منهج السلف الصالح. *وقد قال تعالى:* ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣)

يقول ابن القيم أيضًا في" كتابه الوابل الصيب ص:٣٩": " وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ إما إلى تقصير وتفريط، وإما إلى إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيستامه، فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا أخذه من هذه الخطة فثبَّطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتى ربما ترك العبد المأمور جملة، وإن وجد عنده حرصًا وجدًّا وتشميرًا ونهضة، وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد وسول له أن هذا لا يكفيك وهمتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وألا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا افطروا، وألا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم كما يحمل الأول على التقصير ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم هذا بألا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان وقوة على محاربته، ولزوم الوسط، والله المستعان ". اهـ

١- ويغني عن هذه الأحاديث الضعيفة الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ ".

ويقول ابن القيم-رحمه الله- كما في" إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان:١/١١٥": " ما أمر اللهُ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر، وقد اقتطع كثيرًا من الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين؛ وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه -رضوان الله عليهم-". اهـ

وصيه الحسن البصري -رحمه الله-:

يقول الحسن البصري-رحمه الله-: " السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي؛ فاصبروا عليها رحمكم الله، وقد كان أهل السنة أقل الناس فيما مضي، وهم أقل الناس فيما بقي، أنهم الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنة نبيهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا إن شاء الله ". اهـ

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: **جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إليهِم، فَقالَ: أنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليسَ مِنِّي ".**

٣- مجاهدة النفس في فعل الطاعات والمواظبة عليها:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا(٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا(٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٦-٦٨)

أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي،﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي على الحق، ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي في الدنيا والآخرة ".

(انظر تفسير القرطبي:٣/٢٣٨)(مختصر تفسير ابن كثير:١/٤٩٦)

فمن فعل الطاعات وترك المنهيات واستمر على هذا، فإن الله يثبته على الحق ويهديه الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)

ويدل على هذا أيضًا ما رواه الطبراني من حديث سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وحجُّوا واعتمروا واستقيموا يُستقَمْ بكم ". (حسنه الألباني في صحيح الترغيب:٧٤٥، والراجح ضعفه)

فالله تعالى يحب العمل الدائم حتى لو كان قليلا فالقليل الدائم خير من الكثير المنقطع:

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الأعْمَالِ أحَبُّ إلى اللَّهِ؟ قَالَ: أدْوَمُهَا وإنْ قَلَّ ".

وقد عقد الإمام مسلم في صحيحه بابًا قال فيه:" باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ".

ثم ساق حديثا عن عائشة-رضي الله عنها- أنها قالت: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا باللَّيْلِ فيُصَلِّي عليه، ويَبْسُطُهُ بالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عليه، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إلى النَّبيِّ ﷺ فيُصَلُّونَ بصَلَاتِهِ حتَّى كَثُرُوا، فأقْبَلَ فَقالَ: يا أيُّها النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأعْمَالِ ما تُطِيقُونَ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا، وإنَّ أحَبَّ الأعْمَالِ إلى اللَّهِ ما دَامَ وإنْ قَلَّ ".

قال النووي-رحمه الله- في" شرحه لهذا الحديث:٦/٧١":" فيه الحث على المداومة على العمل وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خير من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة ". اهـ

- ***ومما يدل على محبه الله تعالى للعمل الدائم: قوله سبحانه في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري:*** " وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ.....". فكلمة:" لايزال" تدل على المداومة والاستمرارية ومن كان حاله هكذا فقد حاز الدرجة العالية والجائزة العالية ألا وهي: محبة الله تعالى.

- *قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله- كما في" فتح الباري:١١/٣٤٣":*" قال الفاكهاني:" معني الحديث أنه إذا أدى الفرائض واتبعها بالنوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى ".

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فقد كان عمله ديمة (أي متواصلًا غير منقطع):

ففي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عَلْقمةَ بنَ قَيسٍ النَّخْعيِّ أنَّه سَأَلَ أمَّ المؤمنينَ عائشةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- هلْ كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَخْتَصُّ مِنَ الأيَّامِ شيئًا؟ قالَتْ: لَا، كانَ عَمَلُهُ دِيمَةً [1]...".

وقالت أيضًا عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عنْها- كما عند البخاري ومسلم:" كانَ أحَبُّ العَمَلِ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ الذي يَدُومُ عليه صَاحِبُهُ.

١- الدِّيمةُ: في الأصلِ: المطَرُ المُستمِرُّ مع سُكونٍ بلا رَعْدٍ ولا بَرْقٍ، ثمَّ استُعمِلَ في غَيرِه؛ فشَبَّهَت عائشةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَمَلَه في دَوامِه مع الاقتصادِ بدِيمةِ المَطَرِ.

وسَأَلْتُ عائِشةَ- رَضيَ اللَّهُ عنْها- أيُّ العَمَلِ كانَ أَحَبَّ إلى النبيِّ ﷺ؟ قالَتْ: الدَّائِمُ....".

(أخرجه البخاري)

- وجاء في صحيح مسلم وابن حبان واللفظ له عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا عمِل عملًا أثبَته [1]، وكان إذا نام مِن اللَّيلِ أو مرِض صلَّى مِن النَّهارِ ثِنتَيْ عشْرةَ ركعةً، قالت: وما رأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ قام ليلةً حتَّى الصَّباحِ ولا صام شهرًا متتابِعًا إلَّا رمضانَ ".

(صحيح ابن حبان: ٢٦٤٦)

قال النووي-رحمه الله- في" شرحه على مسلم:٦/٢٣": " فيه الحث على القصد في العبادة، وأنه ينبغي للإنسان ألا يحتمل من العبادة إلا ما يطيق الدوام عليه، ثم يحافظ عليه ". اهـ

ولذلك حذر النبي ﷺ عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما- أن يترك قيام الليل الذي اعتاد عليه فقال له: " يا عبد الله! لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل ". (رواه البخاري ومسلم)

تنبيه:

قول عائشة -رضي الله عنها- في الحديث السابق: " وكان إذا نام مِن اللَّيلِ أو مرِض صلَّى مِن النَّهارِ ثِنتَيْ عشْرةَ ركعةً ". فيه حرص النبي ﷺ على ملازمة الطاعة، وإن تركها لعذر يأتي بها في وقت لاحق. وبين في حديث آخر أن من فعل هذا فأجره تمام غير منقوص.

كما جاء في رواية مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: " مَن نامَ عن حِزْبِهِ، أوْ عن شَيءٍ منه، فَقَرَأَهُ فِيما بيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ الظُّهْرِ؛ كُتِبَ له كَأنَّما قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ ".

بشارة:

من كرم الله تعالى وفضله على عباده أن يكتب لهم أجر ما يداومون عليه من الأعمال إذا عجزوا عنها لعارض كالمرض أو السفر. *فقد أخرج البخاري من حديث أبي بُردةَ أنَّه سَمِعَ أبا مُوسى الأشعريَّ ﷺ أكثَرَ مِن مَرَّةٍ وهو يَقولُ: قال رَسولُ اللهِ ﷺ:* " إذا مَرِضَ العَبدُ أو سافَرَ، كُتِبَ له مِثلُ ما كان يَعمَلُ مُقِيمًا صَحيحًا ".

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله- في" فتح الباري:٦/٣٦ عند شرحه لهذا الحديث": " هو في حق من كان يعمل طاعة فمُنع منها، وكان نيته لولا المانع أن يداوم عليها، *كما ورد ذلك صريحًا عند أبي داود وأحمد من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:* " إذا ابتلى اللهُ تعالى العبدَ المسلمَ ببلاءٍ في جسدِه، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبْ له صالحَ عملِه، فإن شفاه غسلَه وطهَّره، وإن قبضه غفرَ له ورحمه ". اهـ (صحيح الجامع: ٢٥٨)

١- أثبته: أي جعله ثابتًا غير متروك.

فخلاصة الأمر أن العبد عليه أن يفعل الطاعات ويبتعد عن المنهيات ويستمر على هذا حتى الممات.

يقول الحسن البصري-رحمه الله-:" عباد الله! إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلًا دون الموت، فعليكم بالمداومة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩)

وإلى هذا المعنى أشار عيسي-عليه السلام- حيث ذكر وصية الله تعالى له فقال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم:٣١)

ويؤكد النبي ﷺ على هذه الحقيقة فيقول:" إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه[1].....".

(أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ)

فالآية والحديث يدلان دلالة واضحة على أن العمل لا ينقطع إلا بالموت.

فاستمرار العبد على الطاعة من معالم فلاحه، ومظاهر توفيقه، وعنوان على قبول العمل، لأن من علامات قبول العمل إتباعه بعمل صالح بعده.

وعباد الله الصالحين لا يتغيرون ولا يتحولون بل تجدهم من أعلى درجات الاستقامة على الطاعة والعبادة. **قال تعالى:** ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٣)

فيا صاحب العقل السليم والفطرة المستقيمة؛ حافظ على أعمالك الصالحة، وإياك والانتكاس ولا تكن كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، واحذر أن تكون من أهل الغفلة الذين سيندمون على التفريط، **كما قال تعالى:** ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر:٥٦)

وقد سمي الله تعالى يوم القيامة بيوم الحسرة، لكثرة النادمين فيه بعد فوات الأوان. **قال تعالى:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩)

فطوبي لمن استقام على الطاعة ولزم العبادة، وطرح الغفلة وراء ظهره، وندم على ما فرط وقصر، ولزم التوبة والاستغفار، وسأل العزيز الغفار أن يغفر ذنبه، وأن يقبل عمله، وأن يعينه على الطاعة والعبادة والاستمرار عليها حتى الممات.

---

١ ـ وتمام الحديث:" إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ : صدقةٍ جاريةٍ ، وعلمٍ ينتفعُ به ، وولدٍ صالحٍ يدعو له ". ـ وفي رواية:" إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ". (رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ)

٤- تعهد اللسان فلا ينطق إلا بما يرضي الرحمن:

مر بنا أن من معاني الاستقامة: هي استقامة القلب على التوحيد، وهذا ما فسره أبو بكر ﷺ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا... ﴾ أي: لم يلتفتوا إلى غيره". فمتي استقام القلب على معرفة الله وتوحيده، استقامت الجوارح كلها على طاعته، لأن القلب هو ملك، والأعضاء جنوده، فمتي استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعي استقامته بعد القلب من الجوارح: هو اللسان فإنه تُرْجُمان[١] القلب والمعبر عنه. (انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب –رحمه الله– ص:١٩٣)

- **فإذا استقام القلب استقام اللسان.**

كما دل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لا يَسْتَقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يَستَقيمَ قلبُه، ولا يَسْتَقيمُ قلبُه حتَّى يَستَقيمَ لسانُه، ولا يدخُلُ الجنَّةَ رجُلٌ لا يَأْمَنُ جارُه بَوائِقَه[٢] ". (صحيح الترغيب والترهيب: ٢٥٥٤)

- **واذا استقام اللسان استقامت الجوارح:**

ودليل ذلك ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ[٣] فتقولُ اتَّقِ اللَّهَ فينا فإنَّما نحنُ بِكَ فإن استقمتَ استقمنا وإن اعوججتَ اعوججنا ". (صحيح الترمذي: ٢٤٠٧) (صحيح الجامع:٣٥١)

٥- مصاحبة الأخيار:

فالصاحب مرآة تدل عليك، **وقد قيل:** قل لى من تصاحب؟ أقل لك: من أنت.

فالصاحب ساحب، فمصاحبة الأخيار تجعل الإنسان يستقيم على طاعة الرحمن ويسعد في الدنيا والآخرة، لأن الصاحب الصالح يذكرك بالله إذا نسيت، ويأخذ بيدك إذا وقعت، **ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول:** ما أعطي عبد بعد الإسلام خير من أخ صالح ". (إتحاف السادة المتقين ص:١٣١)

فعلى الإنسان منا أن يبحث عن أهل الصلاح ويلزمهم، لأن المرء على دين خليله كما أخبر بذلك الحبيب النبي ﷺ.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يُخالِلُ ". (صحيح أبي داود: ٤٨٣٣) (صحيح الجامع: ٣٥٤٥).

فبين النبي ﷺ أن المرء مُشاكل ومماثل لخليله وجليسه في الاستقامة والصلاح وعدمها.

قال سفيان بن عيينة –رحمه الله–: " انظروا إلى فرعون معه هامان، وانظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شرّ منه، وانظروا إلى سليمان بن عبد الملك صَحِبَه رجاء بن حيوة فقوَّمه وسدده ".

١- ترجمان: بفتح التاء وضمها وهو المعبر عن لسان بلسان آخر.
٢- في إسناد هذا الحديث عليّ بن مسعدة، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام، لكن صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب : ٢٥٥٤).
٣- تكفِّرُ اللِّسانَ: أي تذل وتخضع لأمره، وقيل: معنى" تُكفِّر اللِّسانَ"، أي: تُنزِّلُ الأعضاءُ اللسانَ مَنزِلةَ الكافرِ بالنِّعمِ.

٢- *وأخرج الإمام مسلم من حديث أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:* " الأرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ ".

قال ابن مسعود ﷺ: " ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب".

وقال الإمام مالك-رحمه الله-: " الناس أشكال كأشكال الطير؛ الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، وكل إنسان مع شكله ".

وقال الأوزاعي -رحمه الله-: " الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إذا لم تكن مثله شانته ".

وقال أحدهم:

أنت في الناس تقــاس بالذي اخترت خليلا
فاصحب الأخيار تعلو وتنـل ذكـرًا جميـلا

وقال عدى بن زيد-رحمه الله-:

عن المرء لا تسأل و سَلَ عن قرينه فكـل قــرين بـالمُقــارن يقتــدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيَـارَهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وصدق والله عدي-رحمه الله- فكم من شخص كان مستقيمًا، وبمصاحبة الأشرار أصبح منهم، ثم شقي في الجحيم التي لا يموت فيها ولا يحيا بسبب هؤلاء الأشرار.

ودليل ذلك ما حدث مع عمران بن حطان.

وكان عمران بن حطان من التابعين، وكان على خير وصلاح، ولكن تزوج ابنة عم له على مذهب الخوارج - وكانت حسناء - وطمع في هدايتها فأضلته هي إلى طريق الخوارج المذموم السقيم، فطفق يطعن في أمير المؤمنين عليّ ﷺ بل ويثنى على قاتله عبد الرحمن بن مُلجم غاية الثناء. فجعل يقول في شأن ابن مُلجم - قاتل عليّ- أبياتًا ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء وفيها:

يا ضرْبَةً من تقيٍّ ما أراد بهـا إلا لِيبْلُغَ من ذَي العرْش رضْوانًا
إنِّي لأذكُـرُهُ حينـًا فأحْسَبُــهُ أوْفَي البريَّــة عنــد الله ميزانــًا
أكرِمْ بقومٍ بطونُ الطيرِ قبرهُمُ لم يخْلِطُــوا دِينهم بَغْيًا وعُدْوانًا

لذلك تجد في سورة "هود" بعدما أمر الله بالاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة هود: ١١٢) **فقال بعدها:** ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣)

يقول القرطبي-رحمه الله- في تفسير هذه الآية:٥/٩٩": والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم: عن المرء لا تسأل و سَلَ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم...". اهـ بتصرف واختصار

فاحذر أخي الحبيب من مصاحبة الأشرار وعليك بمصاحبة الأخيار، فالصاحب الصالح لا يفشي لك سرًّا، ولا يهتك لك عرضًا، وينشر حسناتك ويطوي سيئاتك، ويستر عيبك ويحوطك من خلفك، وإذا سألته أعطاك، وإذا نزلت بك مصيبة واساك، ويدلك على الخير ويشير عليك بالصلاح، ويذكرك إذا نسيت ويأخذ بيدك إذا وقعت وذللت، ويعودك إذا مرضتَ، ويمشي في جنازتك إذا متَّ، ويدعو لك بعد موتك ولا ينساك.

٦- طلب العلم الشرعي:

فالعلم قائد، والعمل تابع له، **قال تعالى:** ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (سورة محمد: ١٩)

فأمر الله بالعلم قبل العمل، والذي يعمل بغير علم لابد أن يحيد عن الصراط ويبتعد عنه إما إلى إفراط أو تفريط أو ابتداع، بخلاف من يعمل بعلم فإنه يستطيع أن يفرق بين السنة والبدعة، وبين ما ينفعه وما يضره، فالعلم من أعظم الطرق الموصلة للاستقامة.

٧- قراءة سير الأنبياء وقصصهم وتدبرها:

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(هود: ١٢٠)

يقول السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: " لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء، ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها ". اهـ

٨- محاسبه النفس:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٨،١٩)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسيره: ٤/٣٤٢": "**فقوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر. **وقوله تعالى:** ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثان ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى: فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل، **ولهذا قال تعالى:** ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم، **كما قال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون:٩) ".

فالمحاسبة تحفظ المسلم من الميل عن طريق الاستقامة.

٩- الدعاء:

فقد كان النبي ﷺ يستعيذ من الحور بعد الكور(أي النقصان بعد الزيادة).

ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ...".

فكم سمعنا عمن آمن ثم كفر، وكم رأينا من استقام ثم انحرف، ولذلك كان كثير ما يردد النبي ﷺ في دعائه:" **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**".

فقد أخرج الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال: قُلتُ لأمِّ سلمةَ: يا أمَّ المؤمنينَ! ما كانَ أكثرُ دعاءِ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا كانَ عندَكِ؟ قالَت: كانَ أكثرُ دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ "، قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! ما أكثرُ دعاءَكَ: يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ؟ قالَ: يا أمَّ سلمةَ! إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ. فتلا معاذٌ[1]: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ". (صحيح الترمذي: ٣٥٢٢)

١- فتَلا مُعاذٌ: هو معاذُ بنُ معاذِ بنِ نصرِ بنِ حسَّانَ التَّميميُّ.

- ***وأخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:*** **أنَّ رسولَ اللهِ كان يُكْثِرُ أن يقولَ: يا مُثَبِّتَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِكَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ تُكْثِرُ أن تدعوَ بهذا الدعاءِ فهل تخافُ؟ قال:" نعم، وما يُؤَمِنِّي أيْ عائشةُ وقلوبُ العبادِ بينَ إصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ؟**

- ***وفي رواية:*** **" إنَّ قلوبَ العبادِ بين إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ، فإذا أراد أن يقلِبَ قلبَ عبدٍ قلبَهُ ".**

- ***وفي صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول:*** **" إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا علَى طَاعَتِكَ ".**

- ***وأخرج النسائي في" السنن الكبرى" وابن ماجه عن النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" ما مِن قَلبٍ إلَّا وهو بين إصبَعَينِ مِن أصابِعِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، إذا شاء أن يُقيمَه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغَه أزاغه، ويَقولُ: يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّت قَلْبي على دينِك، قال: والميزانُ بيَدِ الرَّحمنِ جَلَّ وعَزَّ يَرفَعُه ويَخفِضُه ".** (صحيح سنن ابن ماجه:١٦٥)

فإذا كان هذا هو أكثر دعاء النبي ﷺ وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو حبيب الحق وسيد الخلق، وخير من تنفس الهواء، وخير من وطأ الحصى، وهو سيد الأولين والأخرين، فماذا عنا نحن أصحاب الذنوب والمعاصي؟؟؟!

- **وكان النبي ﷺ يخشي على أصحابه من الذلل والانتكاس:**

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: **كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثرُ أن يقولَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك فقلت يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخافُ علينا؟ قال نعم إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ ".**

- ***وفي صحيح مسلم عن عليٍّ ﷺ أنه قال: قالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ:*** **" قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي[1]، وَاذْكُرْ بالهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ ".**

- ***وفي رواية:*** **قُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والسَّدادَ...**

- ***وفي رواية:*** **" يا عليُّ! سَلِ اللهَ الهُدى، و السَّدادَ، و اذكرْ بالهدى هدايتَك الطريقَ، و بالسَّدادِ تسديدَك السَّهمَ ".** (صحيح الجامع: ٧٩٥٢)

١- سددني: أي وفقني واجعلني مصيبًا في جميع أموري مستقيمًا. وأصل السداد: الاستقامة والقصد في الأمور، وسداد السَّهم: يعني تقويمه.

ومعني قول النبي ﷺ لعلي ﷺ:" وَاذْكُرْ بالهُدَى هِدَايَتَكَ " أي تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين لأن هادي الطريق لا يزيغ عنه، ومسدد السهم يحرص على تقويمه، ولا يستقيم رميه حتى يقومه، وقيل: ليتذكر بهذا اللفظ السداد والهدى لئلا ينساه ".

- وكان الحسن البصري -رحمه الله- يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ***فيدعو ويقول:*** " اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ". (أخرجه ابن جرير:١١٥/٢٤بسند صحيح)

وكان بعض السلف يدعو الله أن يثبته على الإيمان وأن يميته على التوحيد فكان يذكر دعاء إبراهيم ﷺ عندما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥) **فقال:** ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ﷺ.

وقد أرشدنا رب العالمين أن ندعو في صلاتنا كل يوم فيما لا يقل عن سبع عشرة مرة أن يهدينا الصراط المستقيم، **فنقول في فاتحة الكتاب:** ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحه:٦،٧)

فعلينا جميعا أن ندعوا بهذا الدعاء كما كان أسلافنا يفعلون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)

سابعاً: ثمرات الاستقامة:

ثمرات الاستقامة كثيرة لا نستطيع أن نحصيها في هذا المقام لكن من أبرز هذه الثمرات:-

١ - الحياة الطيبة:

فالحياة الطيبة لا تكون إلا لمن استقام على طاعة الرحمن وابتعد عما نهاه عنه.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(النحل: ٩٧)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤)

فالحياة الحقيقية هي في طاعة رب البرية، ومن آثر الغي بعد الرشاد فهو ميت؛ وإن كان يمشي بين الأحياء، ***يقول النبي*** ﷺ:" مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ ".

(أخرجه البخاري من حديث أبي موسي الأشعري ﷺ)

فالسعادة كل السعادة في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والشقاء كل الشقاء في البعد عن شرع رب العالمين ومعصية النبي الأمين ﷺ، **قال تعالى:** ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤)

٢- حفظ الله للعبد في أهله وماله ودينه:

ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: " احفَظِ اللَّهَ يحفَظْكَ...". فمن حفظ الله في أوامره ونواهيه حفظه الله في الدنيا: في نفسه، وماله، وولده، ودينه، وايمانه.

يقول ابن رجب-رحمه الله- في" كتابه جامع العلوم والحكم ص:١٣٣": **وقول النبي ﷺ:** " احفَظِ اللَّهَ" يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه. وحفظ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه؛ إلى ما نهى عنه.

وقول النبي ﷺ: " يحفَظْكَ" وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه، وولده، وأهله، وماله. **والنوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين:** حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان ". اهـ بتصرف واختصار.

٣- سعة الرزق:

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن:١٦)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: ٣/ ٦٠ ": وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيرًا. والمراد بذلك سعة الرزق.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة:٦٦)

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦) ". اهـ

فلو استقام الناس على أمر ربهم لانهمرت السماء بمائها، وأخرجت الأرض بركاتها، وعاش الناس في رغد من العيش.

٤- حسن الخاتمة:

فمن استقام على طاعة الرحمن ختمت له بخاتمة السعادة ورزقه الله الجنة والزيادة، كيف لا؟ وهم الذين عملوا **بقوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسيرها: " فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا بالله من خلاف ذلك ". اهـ

- **فرحمه الله على الرعيل الأول استقاموا على طاعة الله إلى آخر لحظات في حياتهم، فرزقهم الله حسن الخاتمة.**

- ***فها هو أبو بكر بن أبي مريم-رحمه الله- يقول عنه يزيد بن عبد ربه:*** " عدت أبا بكر بن أبي مريم وهو في النزع، فقلت له: رحمك الله لو جرعت جرعة ماء؟ فقال بيده لا. - وكان صائما- ثم جاء الليل فقال: أُذِّن؟ أي للمغرب؟ فقلت: نعم. فقترنا في فمه قطره ماء ثم مات.

- ***وانظر إلى عامر بن عبد الله-رحمه الله-*** لما نزل به الموت وكان في النزع الأخير فسمع المؤذن يؤذن للصلاة، فقال: خذوا بيدي إلى المسجد، فقيل له: إنك عليل، فقال: أأسمع داعي الله ولا أجيب! فأخذوا بيده إلى المسجد فدخل في صلاة المغرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات.

وفي كتاب صفة الصفوة عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: خرج قومٌ حجاج إلى بيت الله ومعهم امرأة، فلما دخلوا مكة قالت هذه المرأة: أين بيت ربي؟ أين بيت ربي؟ قالوا لها: الساعة تشاهديه، فلما رأوه قالوا: هذا بيت ربك أما ترينه؟ فخرجت تشتد وتقول: بيت ربي، بيت ربي، حتى وضعت جبهتها على البيت فوالله ما فارقته إلا ميتة.

وغير ذلك من النماذج التي استقامت على طاعة الله فكانت حسن الخاتمة

وصدق أبو محمد عبد الحق الأشبيلي حيث قال في" كتابه العاقبة ": " اعلم أن سوء الخاتمة – أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، أو إقدام على العظائم، فربما غلب عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان[١] عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، أو يكون ممن كان مستقيمًا ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سننه، ويخرج عن طريق الهداية ويسلك طريق الغواية، فيكون ذلك سببًا لسوء الخاتمة وشؤم عاقبته ".

١- يصطلمه الشيطان: أي يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.

ثم ذكر قصة تدل على هذا، قال فيها: ويُروي أنه كان بمصر رجلٌ يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأي ابنه صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: لقد سلبتي لُبي وأخذتي بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلتَ أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معها في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، ولم يظفر بها، وفاته دينه.

(وذكر هذه القصة أيضًا ابن القيم –رحمه الله– في كتابه الداء والدواء)

نعوذ بالله من الخذلان، ومن سوء العاقبة، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان إلى أن نلقاه.

٥- البشرى الطيبة على فراش الموت:

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: اي أمنوا بالله إيمانا صادقًا وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته وثبتوا على ذلك حتى الممات. ثم قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت وتقول لهم: لا تخافوا مما تُقدمون عليه من أحوال القيامة وأمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد، وأهل، ومال، فنحن نخلفكم فيه. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي أبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل، **قال زيد بن أسلم –رحمه الله–**: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث ".

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم؛ أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس وحشتكم في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنان النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي مهما طلبتم وجدتم وحضر لكم كما اخترتم. ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: أي ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم رءوف حيث غفر وستر ورحم ولطف ". (مختصر تفسير ابن كثير: ٤/١٠٠)

– فمن ثبت على طاعة الرحمن إلى الممات ثبته الله تعالى على فراش الموت بلا إله إلا الله، وثبته في القبر عند السؤال، قال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)

٦- الثبات على الصراط وسرعة المرور عليه:

- ***يقول ابن القيم -رحمه الله- في" التفسير القيم ص:١٠٩":*** " من هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سَيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، ولينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه؛ فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦)". اهـ

- ***وقال سهل بن عبد الله التستري-رحمه الله-:*** " من دق الصراط عليه في الدنيا عرض عليه في الآخرة ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق له في الآخرة ". اهـ **(حلية الأولياء لأبي نعيم:١٠/١٩٧)**

قال ابن رجب-رحمه الله- معلقًا على قول سهل التستري: ومعني هذا أن من ضيق على نفسه في الدنيا باتباع الأمر واجتناب النهي وهو حقيقة الاستقامة على الصراط المستقيم في الدنيا كان جزاؤه أن يتسع له الصراط في الآخرة، ومن وسع على نفسه في الدنيا باتباع الشهوات المحرمة والشبهات المضلة حتى خرج عن الصراط المستقيم؛ ضاق عليه الصراط في الآخرة بحسب ذلك والله اعلم ". اهـ

(التخويف من النار ص:٢٣٣)

٧- النجاة من النار:

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يَجْتَمِعانِ في النَّارِ اجْتِماعًا يَضُرُّ أحَدُهُما الآخَرَ، قيلَ: مَن هُمْ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: مُؤْمِنٌ قَتَلَ كافِرًا، ثُمَّ سَدَّدَ ".**

فهذا المؤمن الذي قتل الكافر وظل مستقيمًا على طاعة الله تعالى إلي الوفاة -وهذا هو المقصود بالسداد في الحديث- لا يجتمع هو وهذا الكافر في النار.

وقولُه ﷺ:" ثُمَّ سدَّد": أي عاشَ هذا المؤمن على السَّدادِ والاستِقامَةِ في الدِّينِ، والمُداوَمةِ على الإسلامِ إلى الموتِ، واجتنابِ الموبِقاتِ الَّتي لا تُغفَرُ إلَّا بالتَّوبةِ، والتَّخلُّصِ مِن حُقوق الآدميِّين، فأصبَحَ مُلازِمًا للطَّاعاتِ والعملِ الصَّالحِ، فيُثبِتُ له هذا السَّدادُ دُخولَ الجنَّةِ، والبُعدَ عن النَّارِ.

٨- وأخيرًا من ثمرات الاستقامة: الفوز بالجنة:

ودخول الجنة هي غاية كل مؤمن ومؤمنة، وفيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا النعيم السرمدي الأبدي لا يكون إلا لأهل الاستقامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣، ١٤).

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي أيوب ﷺ أنه قال: **جاء رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: دُلَّني على عملٍ أعمَلُهُ يُدْنيني مِنَ الجنَّةِ، ويُباعِدُني مِنَ النَّارِ، قال: تعبُدُ اللهَ لا تُشرِكُ به شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزكاةَ، وتَصِلُ رحِمَكَ، فلمَّا أَدْبَرَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ تمسَّكَ بما أُمِرَ به دخَلَ الجنَّةَ ".**

وأخرج ابن ماجه من حديث رفاعة بن عرابة الجهني ﷺ قالَ: قال رسول الله ﷺ: **" والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ما من عبدٍ يؤمنُ، ثمَّ يسدِّدُ، إلَّا سُلِكَ بِهِ في الجنَّةِ، وأرجو ألَّا يَدخلوها حتَّى تَبوَّءوا أنتُمْ ومن صلُحَ مِن ذراريِّكم مساكنَ في الجنَّةِ، ولقد وعدَني ربِّي عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَ الجنَّةَ من أمَّتي سبعينَ ألفًا، بغيرِ حسابٍ ".** (صحيح ابن ماجه: ٣٤٧٧) (الصحيحة:٢٤٠٥) (صحيح الجامع:٧٠٦٢)

- **والمسلم المستقيم على شرع رب العالمين يصل لدرجة الصائم القائم.**

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **" إنَّ المسلِمَ المسدَّدَ لَيُدْرِكُ درجَةَ الصوَّامِ القوَّامِ بآياتِ اللهِ، بِحُسْنِ خُلُقِهِ وكَرَمِ ضَرِيبَتِهِ ".**

(صحيح الجامع: ١٩٤٩) (الصحيحة:٥٢٢)

فاللهم ارزقنا الاستقامة على الدين، وثبتنا على الإيمان يا أرحم الراحمين إلى أن نلقاك.

سؤال مهم وبه أختم: اذا وقع الإنسان منا في خطأ أو ارتكب ذنبًا، فهل بذلك خرج عن حد الاستقامة؟

والجواب: لا. لأن الإنسان منا معرض للوقوع في الزلل أو الخطأ فلا يستطيع في الغالب أن يستقيم تمام الاستقامة، ومما يدل على هذا **قوله تعالى:** ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت: ٦) فهذه الآية تشير إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيُجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة.

ويدل على هذا أيضًا قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: " اتَّقِ اللَّهَ حيثُ ما كنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ النَّاسَ بخلقٍ حسنٍ ".

– وأيضًا قال له ﷺ كما في مستدرك الحاكم – وقد مرينا–: " إذا أسأت فأحسن".

وكلها أدلة تدل على أن الإنسان غير معصوم من الوقوع في الزلل أو الخطأ لكن عليه أن يتبع هذا الذنب بتوبة وعمل صالح، فإن فعل؛ تاب الله عليه.

وهذا من فضل الله علينا، فلو عاملنا الله تعالى بعدله لعذبنا وما كان لنا ظالمًا، فإذا نظرت إلى البعض تجده في الصلاة يقف ويقول:" وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين. ثم يتحول بقلبه إلى غير الله فتجد قلبه في عمله أو مع زوجته وأولاده، ولذلك أمرنا بالاستغفار ثلاثًا بعد الصلاة لجبر النقص الذي ربما وقع في الصلاة.

– وكذلك أُمرنا بالاستغفار بعد الحج، **كما قال تعالى:** ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٩٩)

فكل هذا يدل على أن الناس لن يطيقوا الاستقامة التامة الكاملة وهذا ما أخبر عنه النبي ﷺ.

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وأبو يعلى بسند حسن من حديث الحَكَمِ بنِ حَزْنٍ الكُلَفيِّ قالَ: وفدتُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ سابعَ سبعةٍ – أو تاسعَ تسعةٍ – فدخَلنا عليهِ، فقُلنا: يا رسولَ اللَّهِ! زُرناكَ فادعُ اللَّهَ لَنا بِخَيرٍ، فأمرَ بنا، أو أمرَ لَنا بشَيءٍ منَ التَّمرِ، والشَّأنُ إذ ذاكَ دونٌ، فأقَمنا بِها أيَّامًا شَهِدنا فيها الجمعةَ معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقامَ متوَكِّئًا على عَصًا، أو قوسٍ، فحمِدَ اللَّهَ وأثنى عليهِ، كلماتٍ خفيفاتٍ طيِّباتٍ مبارَكاتٍ، ثمَّ قالَ: أيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَن تُطيقوا – أو لَن تفعَلوا[1] – كلَّ ما أمرتُمْ بِهِ، ولَكِن سدِّدوا، وأبشِروا ". (صحيح أبي داود: ١٠٩٦)

١- إنَّكُمْ لنْ تُطيقوا، أو لَنْ تَفْعَلوا: الشَّكُّ مِنَ الرَّاوي.

- وقوله ﷺ:" أيُّها النَّاسُ! إنَّكم لَن تُطيقوا - أو لَن تفعَلوا- كلَّ ما أمرتُمْ بِهِ "، أي: ليس لكم طاقةٌ أنْ تُؤَدُّوا جميعَ ما أُمِرْتُم به، " ولَكِن سدِّدوا "، أي: اطْلُبوا بأعمالِكُمُ السَّدادَ والقَصْدَ في الأمرِ والعَدْلِ فيه، "وأَبْشِروا"، أي: أَبْشِروا بالثَّوابِ على العملِ وإنْ قَلَّ.

ويدل على هذا أيضًا ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: " استَقيموا ولَن تُحصوا[1]، واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةَ، ولا يحافظُ علَى الوضوءِ إلَّا مؤمنٌ ".

(صحيح ابن ماجه: ٢٢٦) (صحيح الجامع:٩٥٢)

وهذا يدل على أن أصل الاستقامة هي استقامة القلب على التوحيد، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ وهذا لابد أن يكون على أكمل وجه وأحسن حال، أما استقامة الجوارح على الطاعة فربما يقع فيه نقص أو خلل وهذا ما بينه النبي ﷺ.

يقول ابن رجب-رحمه الله- في" كتابه جامع العلوم والحكم ص:٣٦٠": " فأصل الاستقامة؛ استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق ﷺ وغيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت:٣٠) بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتي استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته واجلاله ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه؛ استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه ". اهـ

خلاصه الأمر: أن العبد مطالب بالاستقامة؛ وهي السداد بقدر ما يستطيع فإن لم يقدر عليها فالمقاربة لأنه ليس دون ذلك إلا التفريط والضياع.

ويدل على هذا ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريره ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا[2]، وقَارِبُوا[3]، وأَبْشِرُوا[4]، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ، والرَّوْحَةِ، وشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ.

١- ولن تُحصوا: قيل: تحصوا ثواب هذه الاستقامة فلا يعلم ثوابها إلا الله عز وجل، وقيل لن تطيقوا الاستقامة إلا بتوفيق الله عز وجل وكرمه وجوده ويدل على هذا المعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩)

٢- وقول النبي ﷺ:" سدِّدوا": من السداد، والسداد: هو الاستقامة في العمل، والصواب من القول والقصد، والتسديد: هو إصابةُ الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم إذا أصاب الغرضَ المَرْميَّ إليه، ولم يُخْطِئْه.(شرح صحيح البخاري؛ لابن رجب: ١٥١/١) وفُسِّر السدادُ بالصواب، وهو مقارب للقصد؛ لأن التقصير في المطلوب أو المغالاة فيه، تُخرجه عن الصواب. قال ابن رجب-رحمه الله-: "السداد: هو حقيقةُ الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي إلى غرضٍ، فيُصيبه". (جامع العلوم والحِكم ص: ٥١٢)

٣- وقول النبي ﷺ:" قاربوا" من المقاربة، وهي القصد الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير، وهو القريب من الطاعة، الذي لا مَشقَّة فيه. أي التَّوسُّطُ في العِبادةِ، فلا يُقصِّرُ فيما أُمِرَ به، ولا يَتحمَّلُ منها ما لا يُطِيقُه، مِن غيرِ إفراطٍ ولا تَفريطٍ. قال ابن الجوزي- رحمه الله-:" المقاربةُ: القصد في الأمور من غير غلوٍّ ولا تقصيرٍ". (غريب الحديث لابن الجوزي: ٢٢٨/٢) وقال ابن رجب-رحمه الله-:" والمقاربة: أن يُصيب ما قَرُب من الغرض إذا لم يُصِب الغرضَ نفسه، ولكن بشرط أن يكون مُصمِّمًا على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمدٍ... ". (جامع العلوم والحكم؛ لابن رجب ص: ٥١١) فقوله ﷺ:" وقارِبوا: أي إنْ لم تَستطيعوا الأخْذَ بالأكمل، فاعمَلوا بما يَقرُبُ منه. أي اقتربوا من السداد والصواب.

٤- وأبشِروا: أي بالثَّوابِ على العملِ وإن قَلَّ.

وقد أرشَدَ النبيُّ ﷺ إلى ما يُساعِدُ على السَّدادِ والمقارَبةِ، فقال:" **واستعِينوا بالغَدْوةِ والرَّوْحةِ، وشَيءٍ مِن الدُّلْجةِ**"؛ فهذه الأوقاتُ الثَّلاثةُ أوقاتُ العملِ والسَّيرِ إلى اللهِ؛ فالغَدوةُ: أوَّلُ النَّهارِ، والرَّوحةُ: آخِرُه، والدُّلجةُ: سَيرُ آخرِ اللَّيل، وسَيرُ آخرِ اللَّيل مَحمودٌ في سَيرِ الدُّنيا بالأبدانِ، وفي سَيرِ القُلوبِ إلى اللهِ بالأعمالِ. وقال: وَشيءٍ مِن الدُّلجةِ، ولم يقُلْ: والدُّلجة؛ تَخفيفًا؛ لمَشقَّةِ عمَلِ اللَّيل. وصَدَرَ هذا الكلامُ منه ﷺ كأنَّه يُخاطِبُ مُسافرًا يَقطَعُ طَريقَه إلى مَقصدِه، فنَبَّهَه على أوقاتِ نَشاطِه التي يَزْكو فيها عَمَلُه، فشَبَّهَ الإنسانَ في الدُّنيا بالمسافرِ، وكذلك هو على الحَقيقةِ؛ لأنَّ الدُّنيا دارُ انتقالٍ وطَريقٌ إلى الآخرةِ، فنَبَّه ﷺ أُمَّتَه أنْ يَغتنِموا أوقاتَ فُرصتِهم وفَراغِهم. (الدرر السنية)

وأخرج البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **" سدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:" ولا أنا، إلا أن يَتغمدَني[1] اللهُ بمغفرة ورحمة ".**

- وفي رواية البخاري أيضًا عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **" سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِل أحدَكم عملُه الجنةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلَّ ".**

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **" لن ينجِّي أحدًا منكم عملُه"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:" ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ برحمة، سدِّدوا وقاربوا، واغدُوا ورُوحوا، وشيء من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا ".**

فجمعت هذه الأحاديث مقامات الدين كلها فامر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال وقد جاء في حديث ثوبان ﷺ- وقد مر بنا- أن الناس لا يطيقون الاستقامة على وجهها فقال:" **استقيموا ولن تحصوا**". فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ". **(انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص:٣٦٤) (مدارج السالكين:١٠٣/٢)**

وفي قوله ﷺ:" **قاربوا**" بعد قوله ﷺ:" **سددوا**": إشارةٌ إلى يُسْر الشريعة، وأنها بُنِيت على القصد والاعتدال، ورُوعِي فيها اجتنابُ التشديد أو التخفيف الذي يؤدي إلى التحلُّلِ من أحكام الإسلام؛ فالمطلوب: الاستقامة، وهي السداد، وفعل المطلوب على وجه الكمال، فإن لم يستطعِ الشخص الأخذَ بالأكمل، فليعمل بما يقرب منه، والمقاربة دون السداد؛ أي: يُكتفى منك في الشرع بالمقاربةِ رفعًا للحرَج، فالعبدُ يتَّقي اللهَ قدر استطاعته؛ **كما قال تعالى:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)

١- يتغمدني: يغمرني ويفيض عليّ، ويلبسني ويسترني بها.

واكتفاءُ الشرع بالمقاربة دون السداد عند عدم القدرة على فعل السداد، دليلٌ على أن الدِّين يُسرٌ لا عُسر فيه ولا حرَج، وليس في أحكامه ما يجاوز قُوى الإنسان، أو ما يُعنته، وقد جاءت الكثيرُ من النصوص التي تحمل هذا المعنى؛ **كقوله تعالى:** ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

قال النووي-رحمه الله-: " معنى" **سدِّدوا وقاربوا**": اطلبوا السدادَ، واعملوا به، وإن عجَزتم عنه، فقاربوه؛ أي: اقربوا منه، والسداد: الصوابُ، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تَغلوا ولا تُقصِّروا ".

(شرح صحيح مسلم للنووي: ١٦٢/١٧)

وفي الأحاديث السابقة أخبر النبي ﷺ أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة حتى لا يركن أحدٌ إلى عمله ويعجب به فيهلك، ويظن أن نجاته إنما تكون بعمله، ونجاته إنما تكون برحمة الله وعفوه وفضله[1].

وقفة: أخي الحبيب... اعلم أن الإنسان منا إذا وقع منه تفريط فلا ينبغي له أن يستسلم، بل يقوم من كبوته ويواصل السير إلى رب العالمين حتى لا يأخذه الشيطان ويحيد به عن الصراط المستقيم، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن كلما أذنب استغفر وتاب، وكلما وقع قام، واذا عصى ربه تجده ضيق الصدر مستاء، وهذا للمؤمن دون غيره.

وقد جاء في مسند الإمام أحمد والترمذي والطبراني في الكبير عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **مَن سرَّتهُ حسنتُهُ وساءتْهُ سَيِّئتُهُ فذلِكم المؤمنُ** ". **(صحيح الترمذي: ٢١٦٥)**

فاذا وقع المؤمن في معصية فإنه يستاء، فإذا استاء فإنه ينفر عنها ويتركها، ويرجع إلى ربه فيقف ببابه ويلوذ بجنابه، ويعود إلى الطريق المستقيم. (يأتي به إيمانه).

---

١ - فلا يستحق أحدٌ الجنة بعمله وحده ما لم تنله رحمة الله. وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس استحقاق الجنة لذات العمل، وإنما هو لوعد الله تعالى بذلك، والباء ليست للعوض. ففضل الله على عباده أوسع من أعمالهم، ولا يجب على الله تعالى شيء، وليس في استطاعة بشر أن يوفي حق الربوبية، فإن نعم الله كثيرة ويعجز الإنسان عن شكرها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨)

- قال الإمام النووي -رحمه الله- كما في شرح مسلم: ٢٣٢/١٧":" اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب، ولا إيجاب ولا تحريم، ولا غيرهما من أنواع التكليف، ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع. ومذهب أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه شيء، تعالى الله عن ذلك، بل العالَم ملكه، والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذَّب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار، كان عدلا منه، وإذا أكرمهم ونعَّمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه، وإن عذبهم فليس بظالم لهم، ولو نعّم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك، لأنه ملكه، يفعل فيه ما يشاء، ولكنه أخبر وخبره الصدق، أنه لا يفعل ذلك. بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب المنافقين والكفار ويخلدهم في النار عدلا منه سبحانه ". اهـ

وفي ظاهر الحديث السابق:" لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:" ولا أنا، إلا أن يَتغمدَني اللهُ بمغفرة ورحمة ". دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٧٢) ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال سبب لدخول الجنة، فلا تعارض بين هذه الآيات والحديث السابق، فمعنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل، وهو مراد الحديث السابق، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها، وهي من رحمة الله وفضله، والله أعلم.

- ويقول الشيخ ابن عثيمين-رحمه الله- في الإشكال السابق: والجواب عن ذلك يُقال: يجمع بينهما؛ بأن المنفي دخول الإنسان الجنة بالعمل في المقابلة، أما المثبت فهو أن العمل سبب وليس عوضًا، فالعمل لا شك أنه سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، لكن ليس هو العوض وليس وحده الذي يدخل به الإنسان الجنة، ولكن فضل الله ورحمته هما السبب في دخول الجنة والنجاة من النار". اهـ (شرح رياض الصالحين:٣١٠/١)

وقد ضرب لنا النبي ﷺ مثالًا يبين فيه حال المؤمن مع إيمانه. *ففي مسند الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:*" مَثَلُ المؤمنِ ومَثَلُ الإيمانِ كمَثَلِ الفرَسِ في آخِيَّتِه[1]، يجولُ ثمَّ يرجِعُ إلى آخِيَّتِه، وإنَّ المُؤمِنَ يسهو ثمَّ يرجِعُ إلى الإيمانِ، فأطعِموا طعامَكم الأتقياءَ، ووَلُّوا معروفَكم المُؤمنينَ ". (صحيح ابن حبان: ٦١٦)

وفي هذا الحَديثِ يَضرِبُ النَّبيُّ ﷺ مَثَلًا لعَلاقةِ المؤمنِ بإيمانِه، وكيف يُؤثِّرُ الإيمانُ في المؤمنِ، وكيف يكونُ مَرجِعًا له مَهْمَا بعُدَ عنه؛ فيُصوِّرُ ذلك بأنَّ المؤمنَ مِثْلُ الفَرَسِ" في آخِيَّتِه"، وهو الفرَسُ المَرْبوطُ بحَبْلٍ مُثبَّتٍ في وَتِدٍ، وهذا الفَرَسُ يَدورُ حَولَ هذا الوَتِدِ الثَّابِتِ في الأرضِ بمِقْدارِ طُولِ الحَبلِ، ومَعنى هذا المَثَلِ والتَّشبيهِ: أنَّ المؤمنَ مَرْبوطٌ بالإيمانِ، لا انْفِصامَ له عنه، وأنَّه إنِ اتَّفقَ أنْ يَحومَ ويَدورَ حَولَ المَعاصي، فإنَّه يَتَباعَدُ عنِ الإيمانِ، وعن مُلازَمةِ الطَّاعةِ، ولكنَّه يَعودُ إلى إيمانِه، ويَرُدُّه إيمانُه إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ، فيَندَمُ ويَتوبُ، ويَتدارَكُ ما فاتَه منَ العِبادةِ، وهذا هو المُرادُ بقَولِه:" وإنَّ المُؤمنَ يَسْهو، ثمَّ يَرجِعُ إلى الإيمانِ"، أي: إنَّ المؤمنَ قد يَغفُلُ عنِ الإيمانِ، ويَبتَعِدُ عن مَراتِبِ الإحْسانِ، ثمَّ يَرجِعُ إلى الإيمانِ بعَونِ اللهِ وتَوْفيقِه له. (الدرر السنية)

فهذا حال المؤمن مع ربه؛ الاستقامة أو المقاربة، واذا حدث تفريط أو تقصير ووقع منه ذنب فإنه سرعان ما يرجع ويلزم الطريق لأنه ليس من صفات المؤمنين المواظبة على المعصية وإن قلت، ولذلك قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

(الأعراف: ٢٠١)

يقول ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: " يخبر الله تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي أصابهم الذنب أو هموا بالذنب ﴿تَذَكَّرُوا﴾ عقاب الله، وتذكروا أيضًا جزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه ". اهـ بتصرف واختصار

ويقول صاحب أيسر التفاسير: ٢/٢١٥: وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي اتقوا ربهم فلم يشركوا به أحدًا، ولم يفرطوا في الواجبات، ولم يغشوا المحرمات، هؤلاء ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ بأن نزغهم بإثارة الغضب أو الشهوة فيهم ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ يرون قبح المعصية وسوء عاقبة فاعلها فكفوا عنها ولم يرتكبوها ". (أيسر التفاسير:٢/٢١٥)

١- آخِيَّتِه: الأخية هي الوتد الذي يدق في الجدار ويربط فيه الفرس حتى لا يتفلت وينفر ويفر.

وهذا حال المؤمن يتوجع بالمعصية ويتألم لها، فيحدث له ذلك توبة وإنابة إلى ربه عز وجل، ويدلك على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥)

وقد أخرج الترمذي وأحمد وابن ماجه من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ ".

فإذا وقعت أخي الحبيب في ذنب فأتبعه بتوبة، إذا وقعت فلا تستسلم، فقم وانفض عنك غبار الغفلة وواصل السير، فالطريق ليس فيه واقف. **فالله تعالى قال:** ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٧) فلم تذكر الآية واقف، فأنت إن لم تكن في تقدم؛ فأنت في تأخر.

تحذير:

فليحذر كل من أذنب ذنبًا ولم يتألم لفعله، ولم يتب منه، بل أتبعه بذنب آخر، أن فعله مشين، وخطره عظيم، وهذا ما حذر منه النبي الأمين ﷺ.

فقد أخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكْتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ سُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكرَ اللَّه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)".

(صحيح الجامع: ١٦٧٠)(صحيح الترمذي: ٣٣٣٤)

– ***وفي رواية:*** " إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبِهِ فإن تابَ واستغفرَ صُقِلَ قلبُهُ وإن زاد زادَت حتّى تعلُوَ قلبَهُ فذلكم الرَّانُ الَّذي ذكرَ اللَّهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يقول الحسن البصري–رحمه الله–: " وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هو الذنب على الذنب حتى يُعمى القلب، أما سليم القلب فيتبع السيئة الحسنة والذنب التوبة ". اهـ

وتلمح هذا أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢)

أي لا تغادر طريق الاستقامة التي أمرك الله بها، وإذا استزلك الشيطان ووقعت في الذنب وحدت عن الطريق فارجع إليه، وعُلم من الآية أن الذي يُخرج الإنسانَ عن الاستقامة هو الذنبُ، فلو تبتَ وكنتَ صادقًا في توبتك، فأنت بهذا قد رجعت إلى الطريق المستقيم، **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ والطغيان هو مجاوزة الحد، وهذا فيه إشارة إلى أن الخروج عن الطريق المستقيم يكون بفعل البدع لأنها شيء زائد عما جاء به الشرع.

فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا علَى طَاعَتِكَ

اللهم أحيينا طيبين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين

واغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين أجمعين

اللهم اجعلنا من أهل السداد والاستقامة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك